

فيها الناس والبضائع وتوغل نحو الضفة مدومة أحياناً من غير أن تغرق مع ذلك، سلالاً مبتدلة من الأسل المصفور تنتزع من نهر الطوفان كل شموخ. وعندها يكون من الساحة والحلم بحيث ترى فيه أزواج كثيفة متعانقة وهي تتخبط: جلود بهائم مذبوحة ومفرغة ونحيفة ثم منفوخة، وقد تعلق بها سباحون جسداً إلى جسد وكأنهم في رقصة للبقاء على قيد الحياة.

تبدأ قصة «ماني» في فجر العهد النصراني، بعد أقل من قرنين على موت «المسيح». وعلى ضفاف «دجلة» ما يزال حشد من الآلهة يتباطأ. فبعضهم برزوا من الطوفان والكتب الأولى، والآخرين قدموا مع الفاتحين أو مع التجار. وقليل من المؤمنين في (المدائن) يحتفظون بصلواتهم لوثن أوحد، ويحجرون من معبد إلى معبد لإقامة القدايس. ويهرع بعض الناس إلى قربان «ميترا» لاستحقاق نصيبهم من الوليمة؛ ويبحث بعضهم في ساعة القيلولة عن ركن ظليل في حدائق «عشتار»؛ وفي آخر النهار يأتون للطواف حول محراب «ناناي» مترقبين مقدم القوافل؛ وبالتقرب من «الآلهة الكبرى» يحصل المسافرون على محطة لقضاء الليل. ويستقبلهم الكهنة ويقدمون لهم الماء المعطر ثم يدعونهم للانحناء أمام تمثال ربّتهم المحسنة. وفي وسع القادمين من بعيد أن يطلقوا على «ناناي» اسم ربة مألوفة لديهم، فالإغريق يدعونها أحياناً «أفروديت»، والفرس «أناهيتا»، والمصريون «إيزيس»، والرومان «فينوس»، والعرب «اللات»، وهي لكل واحد منهم الأم المُرْضِع، ولثديها السخي حرارة الأرض الحمراء التي يروها النهر الخالد.

وغير بعيد من هناك، على تلة تُشرف على جسر (سلوقية) يتصب معبد «نبو». وإذا كان إله المعرفة، إله الشيء المكتوب، فإنه يسهر على العلوم الغيبية والجلية. وشعاره يَرَأخ، وكهنته أطباء ومنجمون، وأتباعه يلقون عند قدميه بالألواح أو الكتب أو الرقاع التي يتقبلها أكثر مما يتقبل أي قربان آخر. وفي أيام (بابل) المجيدة كان اسم هذا الإله يسبق أسماء الملوك الذين كانوا يُسمون على هذا «نبونصر» أو «نبوپولصر» أو «نبوخذنصر». واليوم يغشى المتعلمون وحدهم